العلاقات العسكرية بين سلطنة سلاجقة الروم والإمبراطورية البيزنطية خلال المرحلة من (463-572هـ / 1071-1176م)

فؤاد عبد الرحيم الدويكات

أستاذ مشارك، قسم العلوم الإنسانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة طيبة، المملكة العربية السعودية

الملخّص

يعد تاريخ سلطنة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى من الحقب المهمة في التاريخ، ويكتسي أهمية خاصة للمشتغلين في مجال الحروب الصليبية؛ إذ لا يمكن فهم تاريخ الحروب الصليبية، دون الإحاطة بتاريخ سلطنة سلاجقة الروم؛ لأن فتح الأناضول على يد السلاجقة واستقرارهم بها كان ضمن البواعث التي حركت أوروبا لشن الحروب الصليبية، إلى جانب الدور الذي نهضت به في التصدي للعديد من الحملات الصليبية التي عبرت الأناضول في طريقها إلى الشام.

يكتنف الغموض جوانب عديدة من تاريخ هذه الدولة، ويكاد يكون مجهولاً لدى الباحثين؛ وهو ما دفعني للإسهام في هذا الجانب من خلال دراسة قضية "العلاقات العسكرية بين سلطنة سلاجقة الروم والإمبراطورية البيزنطية"، وقد ارتأيت تناوله من خلال عدة محاور، هي:

- مقدمات التعاون العسكري بين السلاجقة وبيزنطة.
- التعاون العسكري مع بيزنطة في عهد مؤسس سلطنة سلاجقة الروم سليمان بن قتلمش.
- التعاون العسكري في حقبة تفكك سلطنة سلاجقة الروم.
- التعاون العسكري بين سلاجقة الروم وبيزنطة في فترة الغزو الصليبي.

مقدمة

تبوأت سلطنة سلاجقة الروم (470–708هـ/ 1077–1308م) مكانة مهمة في التاريخ الإسلامي، بالنظر للمنجزات التي حققتها؛ فقد نجحت لأول مرة في التاريخ الإسلامي في فتح الأناضول ووصلت إلى سواحل بحر مرمرة قبالة القسطنطينية، واستعادت العديد من الثغور الشامية والجزرية التي احتلتها بيزنطة في فترة الضعف الإسلامي إبان القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي .

وتاريخ هذه السلطنة من أطول فترات التاريخ السلجوقي، وأقله عناية وبحثاً من جانب المختصين، ولا يزال الغموض يكتنف جوانِبَ منه، وخصوصاً المرحلة الأولى من عمر السلطنة، والممتدة من تأسيسها على يد سليمان بن قتلمش (470–479هـ/ 1086–1077م) حتى نهاية عهد السلطان قلج أرسلان الثاني (551–584هـ/ 1156–1188م).

ودراسة تاريخ هذه السلطنة تكتسي أهمية بالغة بالنسبة إلى الباحثين في تاريخ الحروب الصليبية؛ ذلك أن فتح الأناضول على يد سلاجقة الروم والاستقرار بها كان ضمن البواعث التي حركت الغرب الأوروبي لشن الحروب الصليبية؛ يُضاف إلى ذلك الدور الذي اضطلعت به السلطنة في مواجهة العديد من الحملات التي عبرت آسيا الصغرى في طريقها إلى بلاد الشام، وكان للانتصارات السلجوقية على هذه الحملات الأثر المهم في تطور الحركة الصليبية.

ونظراً لقلة الدراسات التي تناولت سلطنة سلاجقة الروم، فقد ارتأيت أن أُبرزَ جانباً من تاريخ هذه السلطنة من خلال دراسة "العلاقات العسكرية بين سلطنة سلاجقة الروم والإمبراطورية البيزنطية خلال المرحلة الممتدة من (463–572هـ/ 1071–1176م)" .

وتطلبت الدراسة العودة إلى المصادر التاريخية الأولية لتغطية محاور البحث، ومن الصعوبات التي اعترضت الباحث في هذا المجال أن مصادرنا الإسلامية التي عنيت بالتأريخ للسلاجقة لم تؤرخ لسلاجقة الروم؛ لذلك فإن المعلومات التي حصلنا عليها في هذا الجانب كانت مجزأة ومتناثرة في بطون هذه المصادر وفي سياق سردها لأحداث أخرى، ومع ذلك فإنها ذات قيمة علمية مُعتبَرة .

غير أن المصادر الإسلامية ليست كافية للإحاطة بهذا الموضوع، وواقع الأمر أنه يتعذر كتابته دون الاستعانة بالمصادر البيزنطية، والأرمنية، والسريانية، واللاتينية. وميزة هذه المصادر أنها عاصرت الأحداث التي أرخت لها، وكتبت رواياتها بيد معاصرين وأحياناً مشاركين في الأحداث التي كانوا يدونونها، وبذلك فإنها أمدتنا بمادة وفيرة غطت جوانب البحث. وظهر من خلال الاطلاع على هذه المصادر أنها أضافت معلومات جديدة عن تاريخ سلطنة سلاجقة الروم وعلاقاتها مع بيزنطة.

مقدمات التعاون العسكري بين السلاجقة وبيزنطة

في أعقاب معركة ملاذكرد 463هـ/ 1071م برزت ظاهرة التعاون العسكري بين دولة السلاجقة وبيزنطة بصورة غير مسبوقة في تاريخ العلاقات الإسلامية البيزنطية، وهو أمر جدير بالملاحظة. وترجع بدايات التعاون العسكري بين الدولة البيزنطية والسلاجقة إلى سنة 463 هـ/ 1071م، حين قام الإمبراطور البيزنطي المعزول رومانوس الرابع ديوجينس (Romanus IV Diogenes)(460-464هـ/ 1067-1071م) بالطلب من السلطان السلجوقي ألب أرسلان (455-465هـ/ 1063-1072م)[1]، بمساعدته عسكرياً لاسترداد عرشه. أكد هذه الرواية التي انفرد بها المؤرخ ابن العبري(ت685هـ/ 1286م)، وفيها: "أن الإمبراطور البيزنطي سار إلى ملطية وأرسل إلى السلطان ألب أرسلان يستنجده فوعده بأن يوافي بذاته لنجدته كلما دعت الحاجة"[2]، غير أن سرعة تحرك القوات البيزنطية، وإلحاقها الهزيمة بالإمبراطور والقبض عليه وموته 463هـ/ 1071م حال دون تحرك ألب أرسلان ومساعدته على استرداد عرشه.

في ضوء ما تقدم، فإن طلب الإمبراطور البيزنطي كان أول اتصال بالسلاجقة بهدف الحصول على المساعدة العسكرية؛ الأمر الذي يؤكد أن الدولة السلجوقية باتت قوة إقليمية مؤثرة في موازين القوى في المنطقة.

إلى جانب ذلك فإن طلب الإمبراطور فتح الباب أمام ساسة بيزنطة وقادتها في هذه المرحلة للاستعانة بالسلاجقة عسكرياً لتحقيق غاياتهم وتطلعاتهم السياسية.

في الجانب السلجوقي جاءت استجابة ألب أرسلان لطلب الإمبراطور انسجاماً مع السياسة السلجوقية التي سعت من خلال الوسائل الدبلوماسية والعسكرية إلى منع الدولة البيزنطية من التحالف مع الدولة الفاطمية[3]؛ لتمكينه من القضاء على الدولة الفاطمية الشيعية في مصر[4]، وإعادة الوحدة السياسية والمذهبية في المشرق الإسلامي. ومن ثم فإن ألب أرسلان حرص على الإفادة من الخلافات السياسية داخل بيزنطة؛ لكي يضعفها ويجبرها على الوقوف موقف الحياد في صراعه مع الدولة الفاطمية.

التعاون العسكري مع بيزنطة في عهد مؤسس سلطنة سلاجقة الروم سليمان بن قتلمش

بعد انتصاره في معركة ملاذكرد 463هـ/ 1071م، عهد السلطان ألب أرسلان إلى ابن عمه سليمان بن قتلمش الذي كان إلى جانبه في هذه المعركة [5]، بقيادة جبهة الأناضول، وخوله صلاحية المناداة به سلطاناً [6]، ويبدو أن هذه الرواية التي انفرد بها المؤرخ ميخائيل السرياني(ت596هـ/ 1199م) كتبت في ضوء التطورات المتأخرة التي شهدتها السلطنة وكان معاصراً لها، والراجح لدينا أن السلطان ألب أرسلان منحه الإذن بالتوسع في الأناضول، وتسلم الأمير منشوراً من السلطان يتضمن اعترافاً من جانبه بحكم المناطق التي يبسط نفوذه عليها مع إقراره بالتبعية للسلطان، ويبدو أنه استمر بتبعيته لدولة السلاجقة حتى قبيل خروجه بحملته الأخيرة على أنطاكية 479هـ/ 1086م بفترة وجيزة، يؤيد ذلك نص تاريخي ورد في (الألكسياد)، حول تحالف ابن الزعيم الأرمني فيلاريتوس(Philarete) مع سليمان جاء فيه: "أنه دخل على الأمير سليمان الذي كان قد تبوأ السلطنة حالاً" [7]، ونستنتج من هذا النص أن تلقب سليمان بهذا اللقب الذي لا يجرؤ أمير خاضع للدولة السلجوقية أن يتلقب به يعني خروجه على سلطتها واستقلاله عنها.

وبحسب رواية المؤرخ السرياني ميخائيل فإن سليمان بن قتلمش أقام في إقليم كبادوكيا وبنطس(البحر الأسود)[8]، وأخذ بتنظيم القبائل التركمانية التي تدفقت إلى الأناضول بعد ملاذكرد وتجميعهم حوله[9]، ثم شرع في التوسع على حساب بيزنطة، فانتزع مدينة قونية وجوارها من حكامها البيزنطيين، وتابع زحفه شمالاً وأخضع مدينة نيقية وأعمالها واتخذها عاصمة لدولته الناشئة[10]، وغدت مدينة نيقية قاعدة لبسط نفوذه

في الأناضول[11]، وقد أغراه ضعف بيزنطة العسكري؛ للسيطرة على مدينة أنطاكية بوابة الدخول إلى الشام؛ فقاد حملة للاستيلاء عليها وتمكن من فتحها سنة 478هـ/ 1085م[12]؛ وبذلك امتدت رقعة دولته من نيقية شمالاً حتى أنطاكية جنوباً .

وللحفاظ على المكتسبات التي تحققت، عمل سليمان على تثبيت دعائم دولته من خلال كسب مواقع جديدة في الأناضول على حساب بيزنطة، وساعده في تحقيق سياسته تلك حالة الضعف الشديدة التي كانت عليها بيزنطة، وكان من بين أسبابها اندلاع حركة التمرد التي قادها روسّيل دي باليول (Roussel de Bailleul)، وهو من القادة النورمان المرتزقة الذين خدموا في قوات الإمبراطور رومانوس الرابع لمواجهة خطر السلاجقة في آسيا الصغرى، وقد أراد استغلال ذلك الصراع لتحقيق مطامعه بتأسيس إمارة نورماندية مستقلة على حساب الإمبراطورية البيزنطية[13].

أعلن روسيل تمرده سنة 466هـ/ 1073م، مستغلاً اكتساح سلاجقة الروم للأناضول؛ مما نجم عنه انهيار الجبهة البيزنطية، وعلى حد تعبير المؤرخة البيزنطية، فإن ما آلت إليه الإمبراطورية – في هذا الوقت تحديداً – من ضعف شديد شجعه على المجاهرة بعصيانه[14]، فضلاً عن ذلك، فإن نجاح النورمان بتأسيس إمارتهم في جنوب إيطاليا وصقلية على حساب بيزنطة، شجعه على إعلان تمرده؛ عله ينجح في إقامة إمارته في الأناضول[15]، وزاد من خطورة تمرده محاولاته الدؤوبة التحالف مع سلاجقة الروم، وهو ما أكدته المؤرخة كومنينا بقولها: " حين كان يجيئه مدد من السلاجقة يصبح الوقوف في وجهه أمراً مستحيلاً "[16].

مع احتدام الصراع وعجز بيزنطة عن حسمه لصالحها، تخوف الإمبراطور ميخائيل السابع دوكاس (Michael VII Doukas) (464–471هـ/ 1071–1078م) من أن يؤدي نجاح حركة روسيل إلى وقوع بيزنطة بين فكي كماشة، النورمان في جنوب إيطاليا وصقلية، والنورمان في الأناضول؛ لذلك استغاث الإمبراطور بسلاجقة الروم وأرسل يطلب الإمدادات العسكرية من سليمان للقضاء على هذا العدو.

وفي هذا السياق، أشار المؤرخ رنسيمان لاتفاقية وقعت سنة 467هـ/ 1074م، نظمت التعاون بين الجانبين بحيث تعهد سليمان بتقديم الإمدادات العسكرية للإمبراطورية مقابل

تنازلها عن الأقاليم التي فتحها في شرق الأناضول[17]، وبمقتضى الاتفاقية هاجمت القوات السلجوقية روسيل وأنزلت به الهزيمة، لكنها لم تقضِ عليه قضاءً مبرماً؛ إذ ظل يحتفظ بمواقع له قرب سيواس، ومنها أخذ يهاجم بيزنطة ثانية[18]، وتمدنا المؤرخة البيزنطية كومنينا بتفاصيل غاية في الأهمية عن جهود بيزنطة في القضاء على هذه الحركة، ومن خلالها تبرز شخصية قائد سلجوقي جديد يدعى "تتش" لم تقدم عنه أي معلومات، والراجح لدينا أنه خمرتاش السليماني مملوك سليمان وأتابك ولده قلج أرسلان[19]، ويبدو أن سليمان كلفه قتال روسيل، وتفصح كومنينا في روايتها عن محاولات روسيل التحالف معه ضد بيزنطة، إلا أن تلك المساعي باءت بالفشل بفضل جهود والدها الكسيوس كومنين القائد العام للجيوش البيزنطية آنذاك في الأناضول، الذي تمكن من كسب القائد السلجوقي إلى جانبه؛ إذ أرسل إليه كتاباً شرح فيه خطورة روسيل على بيزنطة وعلى سلاجقة الروم، وبين فيه المزايا التي سيحققها السلاجقة من جراء تحالفهم مع بيزنطة للقضاء عليه[20]، وبفضل المساعدة السلجوقية قضي على حركة روسيل، وفشلت محاولته إقامة دولة له في الأناضول [21].

تخلصت بيزنطة من روسيل، لكن المساعدات العسكرية السلجوقية المشروطة ألحقت بالإمبراطورية ضرراً بالغاً؛ فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي تدخل فيها سلاجقة الروم عسكرياً إلى جانب بيزنطة وبشروطهم التي أمليت عليها؛ وبذلك أتاح لهم الإمبراطور فرصة التدخل في شؤون بيزنطة بما يحقق مصالحهم، وكانت سلطنة سلاجقة الروم مراهنة على الظهور قوة مهيبة حين استعان بهم الإمبراطور البيزنطي، ومثل ذلك اعترافاً من جانبه بالقوة الجديدة التي أرغمت بيزنطة على الرضوخ لمطالبها والتنازل لها عن الأقاليم التي تم فتحها شرق الأناضول .

ازدادت أوضاع بيزنطة سوءاً باندلاع الحرب الأهلية بين المتنافسين على العرش على مدى عشر سنوات (464-474هـ/ 1071-1081م)، وتعد هذه الفترة من الحقب المظلمة في التاريخ البيزنطي، وحسبنا دليلاً على ذلك قول المؤرخ ميخائيل السرياني: "وفي حين صعد الأتراك - سلاجقة الروم - إلى بلاد الروم وأعملوا فيها سلباً ونهباً وتدميراً وحرقاً صارع الروم أنفسهم بعضهم بعضاً" [22]، وكذلك قول ابن العبري أيضاً: "ضعفت دولة الروم يومئذ إذ كان الأتراك - سلاجقة الروم - يغزون بلادها في كل مكان" [23].

أفاد سلاجقة الروم من تدهور أوضاع بيزنطة في هذه الحقبة، ولم يتوان سليمان بن قتلمش عن مساعدته ودعمه لطرف على حساب الآخر مادام ذلك يصب في مصلحة دولته ويمكنها من بسط سيطرتها على مواقع جديدة في الأناضول .

فقد وقف إلى جانب القائد العسكري البيزنطي في آسيا الصغرى نقفور الثالث بوتنياتس (Nicephorus III Botanciates)(471-474هـ/ 1078-1081م)، وأمده بقوة عسكرية في ثورته ضد الإمبراطور ميخائيل السابع سنة 471 هـ/ 1078م، مكنته من دخول القسطنطينية والمناداة به إمبراطوراً، وبالمقابل ضم سليمان مناطق جديدة في الأناضول مثل نيقوميديا وخلقدونية إلى دولته[24]، وفي حديثها عن هذه المرحلة أكدت المؤرخة البيزنطية كومنينا امتداد دولة سلاجقة الروم على رقعة كبيرة من الأناضول، أن الأتراك-سلاجقة الروم- سيطروا سيطرة تكاد تكون تامة على جميع المناطق الواقعة بين البحر الأسود والبسفور من ناحية، وبين مياه بحر أيجه والشام من ناحية أخرى، وأصبح لهم النفوذ على جميع المعابر المائية التي تجري على حدود بامفيليا[25] وقليقية؛ مما أدى إلى تشتيت شمل الجيوش البيزنطية في كل النواحي[26].

نجم عن تردي الأوضاع الداخلية في عهد الإمبراطور نقفور الثالث بوتنياتس[27]، تمرد القائد نقفور برينيوس (Nicephorus Brenneas) في الجانب الغربي من الإمبراطورية، فوجه الإمبراطور بوتنياتس قائد الحرس الإمبراطوري آنذاك ألكسيوس كومنين لدرء خطره، لكن ضعف إمكانات بيزنطة العسكرية وعجزها عن التصدي لهذه الثورة دفعت مستشاري الإمبراطور، لحثه على التماس المساعدة العسكرية من سلاجقة الروم، وسارع سليمان لتلبية طلب الإمبراطور وأرسل له قوة عسكرية مكنته من التغلب على الثورة، وأثنت المؤرخة كومنينا على القوة السلجوقية، وأشادت بدورها في القضاء على ثورة برينيوس[28].

ولم يمض طويل وقت حتى ثار نقفور ميليسينوس (Nicephorus Melissinos) على الإمبراطور، وعقد معاهدة مع سليمان بن قتلمش سالكاً في ذلك نهج بوتنياتس، فتعهد سليمان بمساعدته للوصول إلى العرش مقابل حصوله على نصف الأقاليم التي سبق أن ساعد نقفور بوتنياتس في الاستيلاء عليها، فلما أخفق ميليسينوس في دخول القسطنطينية رفض سليمان إعادة ما استولى عليه من المدن[29].

وبنظرة تقييمية على ما تحقق للجانبين من هذا التعاون يتبين أنه ألحق أبلغ الضرر بالإمبراطورية البيزنطية؛ إذ عجز قادتها وساستها عن فهم طبيعة الخطر السلجوقي المحدق بهم وأهدافه في التمدد على حساب بيزنطة؛ بما يعنيه ذلك من تداعي سيادة بيزنطة على أجزاء شاسعة من الأناضول، وكان من النتائج المباشرة لهذا التعاون تثبيت أقدام السلاجقة في الأناضول، والسيطرة على أقاليم ومدن لم يكن بوسعهم احتلالها بقواهم الذاتية وحدها[30]، وغاية ما حققه المتنافسون على العرش البيزنطي تحقيق أطماعهم الذاتية بالوصول إلى العرش، ووقوف السلاجقة منهم موقف المعين والمساعد.

في الجانب السلجوقي، مثل التعاون العسكري ركيزة من ركائز سياسة سليمان بن قتلمش في تثبيت دعائم دولته، وكسب المزيد من الأراضي على حساب بيزنطة وبأقل التكاليف؛ مما أفاد في تأمين حدود دولته بما حقق لها الاستقرار.

دخلت العلاقات السلجوقية البيزنطية طوراً جديداً باعتلاء ألكسيوس الأول كومنين (ALexios I Comnenus)(474-512هـ/ 1081-1118م) عرش الإمبراطورية[31]. حرص فيه على شراء مسالمة سلاجقة الروم على جبهة الأناضول للتفرغ لخطر النورمان وقبائل البشناق على الجبهة الغربية[32]، وتؤكد المؤرخة البيزنطية كومنينا أن والدها سعى إلى كسب ود السلاجقة واستمالتهم إليه بالصلات التي وصلهم بها[33]، والذي أراه أن الإمبراطور البيزنطي مال إلى مراسلة سليمان وأهدى له لكسب وده ومهادنته؛ لاعتقاده بعدم جدوى مخاصمته في هذا الوقت لحماية البلاد من بطشه ومداراته ريثما تستقر الأوضاع على الجبهة الغربية؛ وإن لم يؤد ذلك إلى وقف توسعه في الأناضول؛ مما ترتب عليه مضاعفة الإمبراطور لجهوده لإقناع السلطان السلجوقي بالتوصل لاتفاقية سلام بين الجانبين، واصطنع الإمبراطور جميع الوسائل التي تكفل انسحاب السلاجقة من مناطق البسفور الشرقية، بما في ذلك المزج بين الدبلوماسية والقوة العسكرية وتحدثت المؤرخة كومنينا عن غارات بحرية خاطفة أرسلها والدها إلى سواحل البسفور الشرقية أَرغمت سلاجقة الروم على التراجع والانسحاب من قرية داماليس على شواطئ البسفور الشرقية وما جاورها من المناطق الساحلية[34]، ويبدو أن هذه الخطوة أقنعت سليمان بن قتلمش بقبول مقترحات الإمبراطور، وتم التوصل إلى اتفاقية سلام أصبح بموجبها نهر دراكون الحد الفاصل بين سلطنة سلاجقة الروم والدولة البيزنطية[35].

على الجبهة الغربية فإن ضعف الإمكانات العسكرية البيزنطية، وفشل ألكسيوس في التصدي لخطر النورمان، جعله يبادر للاستنجاد بالسلطان سليمان بن قتلمش، وفي هذا الصدد تؤكد الأميرة كومنينا أن والدها أدرك ضخامة المهمة التي أمامه، وتملكه الخوف؛ إذ أيقن أن قوته لا تكافئ ضخامة القوة النورماندية، لذلك رأى ضرورة الاستنجاد بسلاجقة الروم[36]، وفي حديثها عن التماس والدها للمساعدة من السلاجقة نلحظ حرصها على إظهارهم في صورة القوة التابعة لبيزنطة – بينما الحقيقة أنهم دوخوا بيزنطة–، تقول: "استدعاهم وشرح لسلطانهم ما يدور بخلده من الأفكار حتى يكونوا على بينة من الواقع "[37].

صفوة القول: إن الإمبراطور أرسل إلى السلطان ملتمساً منه المساعدة وإمداداه بالقوات العسكرية التي تمكنه من مقاومة النورمان، والذي أرجحه أن يكون هناك معاهدة أبرمت بين الجانبين– على غرار المعاهدات السابقة– في حدود عام 474هـ/ 1081م، وهي السنة التي شهدت اندلاع الحرب البيزنطية النورماندية، التزم فيها الطرف السلجوقي بإرسال القوات العسكرية للقتال إلى جانب بيزنطة على الجهة الغربية، مقابل امتيازات مناسبة قدمها الجانب البيزنطي، لكن المؤرخة البيزنطية لم تشر لتلك الامتيازات.

شاركت القوات السلجوقية إلى جانب بيزنطة في حربها ضد النورمان 474–475هـ/ 1081 – 1082م[38]، وطال أمد الحرب، فسارع الإمبراطور ثانية 475هـ/ 1082م بطلب إمدادات عسكرية جديدة من السلاجقة، وأرسل إليهم هذه المرة يلتمس نجدته بقوات ذات كفاءة عالية، فأمده السلطان بقوة بلغ تعدادها سبعة آلاف رجل، تحت إمرة ضباط من ذوي الكفاءة العالية، بينهم ضابط أطلقت عليه كومنينا اسم "كاميرس Kamyres" فاق كل من سواه في إلمامه بالشؤون الحربية إلماماً حصل عليه منذ زمن بعيد[39]، وبفضل تلك القوة الكبيرة والقدرات القتالية العالية التي تمتعت بها تحقق النصر على النورمان بعد أهوال جسام، وعاد الإمبراطور في أوائل ديسمبر (كانون أول) 1083م/ 476هـ إلى عاصمته مكللاً بالنصر[40].

وهنا يتبادر إلى ذهن الدارس السؤال الآتي: ما الذي قدمته بيزنطة لسلطنة سلاجقة الروم مقابل تلك المساعدات الضخمة التي مكنتها من احراز النصر؟

تقدم أن سليمان بن قتلمش كان مدفوعاً في تقديمه المساعدات العسكرية للمتنافسين على العرش برغبته في كسب مواقع جديدة على حساب بيزنطة بما يحقق استقرار دولته،

ويتراءى لي أن الإمبراطور ألكسيوس لم يكن بوسعه التنازل لهم عن أماكن جديدة مقابل تلك المساعدات، ولعله أراد أن لا يظهر في صورة الحاكم الذي يفرط في حقوق دولته ويتنازل عن أراضيها لأعدائه؛ مما يسبب له الحرج أمام منافسيه. إزاء ذلك، وجد أن الوسيلة المناسبة للحصول على تلك المساعدات هي سلاح المال، وهنا يصبح ما أشارت إليه كومنينا عن إسرافه في تقديم الأموال إليهم، واستمالتهم إليه بالصلات التي وصلهم بها[41]، مفهومة ومعبرة عن تلك السياسة، ولعل سليمان أدرك الفائدة التي تعود عليه من هذه الأموال لتحقيق ازدهار دولته، وتدعيم مركزه في الأناضول.

التعاون العسكري في حقبة تفكك سلطنة سلاجقة الروم (479 - 485هـ/1086 - 1092م)

كان من نتائج الصراع بين سليمان بن قتلمش وتتش بن ألب أرسلان(ت488هـ/ 1094م) [42]، شقيق السلطان ملكشاه حول حلب سنة (479هـ/ 1086م) أن خسر سليمان حياته وجيشه في تلك المعركة[43]، وترتب على مقتله تفكك الوحدة السياسية لسلطنة سلاجقة الروم؛ ذلك أن سليمان وقبل مسيره إلى أنطاكية عين نائباً عنه في نيقية أبا القاسم وجعل له السلطة العليا على جميع أمراء دولته[44]، وما إن انتشر خبر مقتله في الأناضول حتى استقل أمراء دولته كل بما تحت يده[45]، وعمل أبو القاسم للاستئثار بالسلطة في الأناضول، وازداد نفوذه بصورة ملحوظة وهاجمت قواته الأقاليم البيزنطية حتى وصلت إلى المضائق قبالة القسطنطينية[46].

أثار اتساع نفوذ أبي القاسم وتزايد قوته مخاوف السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان (465-486هـ/ 1072-1092م)[47]، والإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين؛ إذ خشي السلطان السلجوقي أن يحكم أبو القاسم سيطرته على سلطنة سلاجقة الروم، ففكر في القضاء عليه وإخضاعه لسلطة الدولة السلجوقية، بينما أراد الإمبراطور البيزنطي الإفادة من حالة التفكك لإعادة سيادة الدولة البيزنطية على الأقاليم التي استولى عليها سلاجقة الروم.

وجدير بالذكر أن حقبة الانحلال وتفكك الوحدة السياسية لسلطنة سلاجقة الروم لم يصحبها توقف التعاون العسكري بين سلاجقة الروم وبيزنطة، يتضح ذلك من خلال

تعاون الإمبراطور البيزنطي وحاكم نيقية الجديد أبي القاسم للوقوف في وجه الحملة التي أرسلها ملكشاه بقيادة برسق[48]، سنة 479هـ/ 1086م؛ الأمر الذي أجبر أبا القاسم على الاستنجاد بالإمبراطور البيزنطي لمساعدته في التصدي للحملة، فأجابه الإمبراطور وأرسل له قوة عسكرية من خيرة قواته، وعللت الأميرة أنا كومنينا هذا التصرف من جانب والدها بالقول: "لم يكن غرضه من ذلك مساعدة أبي القاسم كما يبدو للناظر، لكنه قدر أن تؤدي هذه القوة إلى تدمير الرجل؛ لأنه كان يرى أنه إذا حارب عدوان للإمبراطورية كل منهما الآخر فخير للإمبراطور أن يعين أضعفهما"[49]، وبفضل هذه المساعدة تم إفشال الحملة[50].

كانت هذه هي المرة الأولى التي تدخلت فيها بيزنطة عسكرياً إلى جانب سلاجقة الروم منذ تأسيس دولتهم، وتبين من رواية كومنينا أن السياسة البيزنطية استهدفت إعادة سيادة الدولة البيزنطية على أملاكها، ولم تكن مساعدته العسكرية لأبي القاسم إلا في نطاق هذه السياسة، وكان حرصه على مساعدة أبي القاسم إدراكاً منه لخطورة استيلاء ملكشاه على نيقية، وقدر أن بقاء أبي القاسم أهون عليه من سيطرة ملكشاه ومجاورة جيوشه القوية لبيزنطة، وما يعنيه ذلك من تدخله في شؤون بيزنطة.

ووفقاً لرواية كومنينا، عاد ملكشاه وأرسل حملته الثانية للقضاء على أبي القاسم وإخضاع سلاجقة الروم للسلطنة السلجوقية، وكانت بقيادة بوزان[51]، ولضمان نجاح الحملة حمل بوزان إلى الإمبراطور البيزنطي مشروعاً للتحالف يقضي بتخلي بيزنطة عن تحالفها مع أبي القاسم وإخراجه من نيقية مقابل تعهد الدولة السلجوقية بإعادة بعض الأقاليم البيزنطية التي كانت في حوزة السلاجقة إلى بيزنطة ومنها أنطاكية، فضلاً عن مساعدات عسكرية كبيرة يقدمها ملكشاه للإمبراطور البيزنطي تعينه على تنفيذ مشاريعه التوسعية في الشرق والغرب[52]، إلا أن الإمبراطور البيزنطي رفض مقترحات السلطان، ووضع نصب عينيه القضاء على سلاجقة الروم منتظراً الوقت الملائم لتنفيذ مخططه[53].

نسق أبو القاسم والإمبراطور البيزنطي جهودهما لمواجهة حملة بوزان، وأمد الإمبراطور حليفه السلجوقي بقوة عسكرية بيزنطية، وتمكنا من الدفاع عن نيقية وإجبار بوزان على رفع الحصار عنها[54]، وإذا أمعنا النظر في رواية كومنينا فإنه يتعذر علينا التسليم

بما جاء فيها، فروايتها تعكس وجهة النظر الرسمية البيزنطية، لتظهر الإمبراطور بمظهر الحاكم القوي الذي يخطب السلطان وده ويسعى للتحالف معه. والأدلة التاريخية لا تؤيد روايتها لعدة أسباب، منها: لم تكن بيزنطة على درجة من القوة تمكنها من فرض سيطرتها على الأناضول بحيث تغري السلطان بالتحالف معها، بل كانت ما تزال تعاني من النتائج الكارثية لمعركة ملاذكرد، وتذكر المصادر الإسلامية أنها كانت تدفع الجزية السنوية للسلطان ملكشاه[55]؛ مما يجعل حديثها عن مشروع التحالف برمته بين السلطان والإمبراطور مقابل امتيازات كبيرة موضع شك. يضاف إلى ذلك، أن الإمبراطور البيزنطي لم يكن يملك القوة الكافية ليفرض سيطرته على حليفه حاكم نيقية ويخرجه من الأناضول.

استغل الإمبراطور البيزنطي مقتل أبي القاسم وقيام أخيه بولداق – وتسميه كومنينا (بولخانيس)– في الحكم مكانه، وحاول إقناعه برد نيقية لبيزنطة ورحيله عنها مقابل مبالغ مالية ضخمة، وقد ذهبت رواية كومنينا إلى أن والدها أسرف في تقديم الأموال إليه عله يعيد المدينة ويرحل عنها، لكن الأمير الجديد أخذ يماطل الإمبراطور أملاً في عودة أخيه[56]، غير أن استعادة قلج أرسلان لدولة أبيه أضاع هذه الفرصة على الإمبراطور. وبنظرة على ما تحقق لبيزنطة خلال هذه الحقبة المضطربة، نلحظ أن الدبلوماسية البيزنطية شجعت استمرار حالة الفوضى في السلطنة لاستعادة سيادتها على الأقاليم التي فقدتها، ودأب ألكسيوس على إثارة الخلافات والأحقاد بين السلاجقة، والوقوف إلى جانب طرف ضد الآخر، وتقديم الرشاوى، وفي المحصلة النهائية فشل في تحقيق غايته واستعادة أملاك دولته.

التعاون العسكري بين سلاجقة الروم وبيزنطة في فترة الغزو الصليبي

إثر وفاة ملكشاه (485هـ/ 1092م) وتولي ابنه بركياروق الحكم (487–497هـ/ 1093–1103م)[57]، أطلق سراح قلج أرسلان الأول داود الابن الأكبر لسليمان بن قتلمش، فقاد قوة موالية له من الناوكية[58]، وسار بها إلى الأناضول لاستعادة دولة أبيه، ونجح في استعادة ملطية، وقيسارية واقصرا، وقونية، وسيواس[59]، ثم تابع زحفه حتى وصل نيقية، فرحب به السلاجقة ونصّبوه سلطاناً عليهم[60]، والملاحظ هنا

عدم اتفاق المصادر والدراسات الحديثة على تحديد السنة التي استعاد فيها قلج أرسلان عرش أبيه[61].

أخذ قلج أرسلان في تنظيم دولته؛ فجدد بناء عاصمته، وتركز اهتمامه في هذا المجال على الجانب العسكري وزيادة تحصين العاصمة، ووصف المؤرخ الصليبي ريموند أجيل مدينة نيقية وتحصيناتها في عهده بدقة كبيرة، وأشار إلى ذلك بقوله: "مدينة تتمتع بحماية طبيعية ودفاعات بارعة، كانت تحصيناتها الطبيعية تتكون من بحيرة كبيرة تصل إلى أسوارها، وخندق مليء بالماء المتدفق من الجداول القريبة، يسد المدخل من ثلاث جهات، وقد أحيطت نيقية بأسوار عالية جداً، حتى إن المدينة لم تكن تخشى هجوم الأعداء"[62]، كما أعاد تنظيم مالية الدولة وجمع رجاله الجزية والضرائب من المناطق التابعة له لتغطية نفقات الدولة[63]، وعين الولاة والقادة من قبله، وبعد أن استكمل تنظيم شؤون الدولة أرغم الأمير بولخانيس على التخلي عن المهام التي كان يقوم بها[64]، وعين مكانه أخاه محمداً الذي أصبح كبير نوابه[65]، ثم التفت إلى بيزنطة وعمل على منعها من الاستقرار عند شواطئ بحر مرمرة[66]، وعقد معاهدة معها[67]، مكنته من حرية التحرك شرقاً؛ حيث حاصر مدينة ملطية سنة 488هـ/ 1095م[68]، لكنه فشل في استعادتها، واضطر للانسحاب للدفاع عن عاصمته ضد الخطر الصليبي الذي أطل بوجهه من الغرب[69]. وأخذ بتقوية دفاعات العاصمة لتمكينها من الصمود في وجه الحشود الصليبية، وخزن فيها الطعام الذي يكفيه في أثناء الحصار لأطول مدة، كما قوى حماية الأبواب من الداخل[70].

والملاحظ هنا عودة التعاون العسكري بين سلاجقة الروم وبيزنطة إثر زحف الحشود الصليبية تجاه المشرق الإسلامي؛ فحين تقدمت جموع الحملة الصليبية الشعبية بقيادة بطرس الناسك (Peter the Hermit) في أراضي السلاجقة، سارعت بيزنطة وتنفيذاً للاتفاقية المعقودة مع قلج أرسلان بتحذيره من الزحف الصليبي، وانفرد المؤرخ العظيمي بالقول: "كتب ملك الروم ألكسس إلى المسلمين يعلمهم بظهور الفرنج"[71]، من غير أن يحدد الجهة التي كتب إليها محذراً، وجاءت رواية المؤرخ الرهاوي المجهول أكثر دقة وأوفى تفصيلاً من رواية العظيمي، وفيها يذكر "أرسل الملك ألكسس وأوماً إلى الأتراك الذين في نيقية وفي حدوده أن يقبلوا ويبيدوهم، وهذا ما حدث فعلاً؛ فقد أسرع

الأتراك وقضوا عليهم وهم بعد على شاطئ البحر (البسفور) وأبادوهم شر إبادة، وهكذا فني الجيش الأول برمته "[72].

عبرت جموع الحملة الصليبية النظامية مضيق البسفور491هـ/ 1097م، ثم زحفت باتجاه مدينة نيقية عاصمة سلاجقة الروم، ورأى الإمبراطور البيزنطي أن الوقت قد حان لطرد السلاجقة من الأقاليم الغربية لآسيا الصغرى مستفيداً من الحشود الصليبية، وبدأ بتنفيذ سياسته، وهو ما برهن عليه رواية المؤرخة البيزنطية كومنينا التي أبرزت معالم خطته لإسقاط عاصمة السلاجقة. لقد سارع بنقل مركز عملياته الحربية الدائم إلى موقع قريب من مدينة نيقية يدعى بلكانوم، يكون من خلاله قادراً على رصد تحركات السلاجقة خارج المدينة ومتابعتها، وفي الوقت نفسه يسهل عليه مراقبة تحركات السكان داخل المدينة، وضع الإمبراطور خطة الاستيلاء على المدينة بنفسه، وأحاطها بسرية تامة، وعهد إلى قائده "بوتاماتيس" بمهمة الاتصال سراً بسكان نيقية، الذي راح يخوفهم من عنف الصليبيين وانتقامهم إن هم استولوا على المدينة ومناهم بعفو الإمبراطور وسخائه[73]، حدث هذا في الوقت الذي كان فيه قلج أرسلان متغيباً عن نيقية؛ لانشغاله بالصراع مع إمارة الدانشمند على مدينة ملطية[74]، ويبدو أن الإمبراطور البيزنطي نجح في خداع قلج أرسلان بوساطة استخباراته وجواسيسه الذين بالغوا في تضخيم صورة الخلافات بين الإمبراطور وقادة الحملة الصليبية الأولى، حتى يبقيه بعيداً عن نيقية، ويبدو أن قلج وقع في الفخ، واعتقد بأن الصليبيين لن يصلوا إلى نيقية، ولعل بقاء زوجته وأولاده داخل نيقية ينهض دليلاً على ذلك، علماً بأن المؤرخ البيزنطي كيناموس حين امتدح سلاجقة الروم أشاد بما هم عليه من قدرات استطلاعية بارزة[75].

بعد مرور أكثر من أسبوعين على حصار القوات الصليبية لمدينة نيقية، الذي ابتدأ في السادس من مايو (أيار) 491هـ/ 1097م، أدرك السلطان قلج حقيقة الأمر فأرسل قوة على عجل لاستطلاع خبر الصليبيين والدفاع عن المدينة، ويبدو أن قوة الاستطلاع أرسلت بتقريرها للسلطان وأحاطته علماً بحقيقة الموقف أمام نيقية، فتحرك السلطان على رأس قواته، ونزل في السهل الواقع خارج المدينة في 21 أيار، ولما علم الإمبراطور بوصول السلطان وما بحوزته من قوات ومعدات، تخوف من إمكانية دخوله إلى المدينة

عبر البحيرة، وللحيلولة دون ذلك سيطر الإمبراطور على البحيرة، وبعد معركة قصيرة أدرك السلطان عجزه عن فعل شيء وأن من الخير له أن ينسحب، وسط هذه الظروف أُعيدت المفاوضات بين المبعوث البيزنطي وسكان نيقية، وفي اليوم التالي استسلمت المدينة للإمبراطور ورفعت الأعلام البيزنطية على الأسوار ودخلت القوات الصليبية والبيزنطية المدينة[76]. وأرسل الإمبراطور زوجة السلطان وولديها وعدداً كبيراً من الأسرى إلى القسطنطينية وعاملهم بإكرام بالغ، ثم أطلق سراحهم بعد أيام قليلة[77]، وقد أدرك المؤرخ الصليبي وليم الصوري مغزى هذا التصرف من جانبه وعلق عليه بقوله : "إنه فعل هذا أملاً في كسب ودِّ الأتراك؛ ليتمكن بهذه الأعمال من إثارتهم ضدنا بسهولة، ووثق أن الناس لن يثنيهم الخوف من استسلام مشابه إذا ما حاصرت جيوشنا مدينة أخرى[78]، وبذلك أفاد الإمبراطور من الحشود الصليبية في استعادة نيقية في 26 يونيو (حزيران) 1097م، وأتبع ذلك بإخراج السلاجقة من المناطق الغربية لآسيا الصغرى وهي إقليم مسيا (Mysia) وأيونيا، وفي ربيع 1098م، استعاد ليديا وغرب فريجيا من السلاجقة، وأكمل تحركاته باستعادة السيطرة على بيثينيا بعد هزيمة السلاجقة في معركة ضورليوم[79].

كانت خسارة قلج أرسلان فادحة جداً؛ إذ فقد عاصمة ملكه، وخرج عن سلطته الأقاليم الغربية من الأناضول، وبعد هذه الهزيمة تحول إلى مدينة قونية التي أصبحت العاصمة الجديدة للسلطنة، وأتاحت له موجات المهاجرين التركمان إلى الأناضول إعادة بناء جيشه[80].

أثار النجاح الذي حققته الحملة الصليبية الأولى حماسة الكثيرين من أمراء أوروبا للذهاب إلى المشرق الإسلامي والفوز بنصيبهم من الغنائم قبل فوات الفرصة. واللافت للنظر استئناف التعاون العسكري بين سلاجقة الروم وبيزنطة، وإن ظهر بفعل المستجدات الجديدة في صورة التعاون الاستخباراتي وتبادل المعلومات؛ ذلك أن بيزنطة لم يكن بمقدورها المشاركة بقوات عسكرية إلى جانب سلاجقة الروم للتصدي للحملات الصليبية الجديدة القادمة من الغرب، وأرادت أن تنأى بنفسها عن الظهور في صورة القوة المسيحية الأرثوذكسية المعادية للصليبيين الكاثوليك والمتحالفة عملياً مع سلاجقة الروم المسلمين؛ مما يثير الغرب الأوروبي ضدها ويجعله ينظر إليها باعتبارها

دولة مارقة ارتكبت خيانة كبرى في حق المسيحية والقضية الصليبية. لذلك حين زحفت جموع الحملة اللومباردية في سبتمبر (أيلول) 494هـ / 1100م، بقيادة أنسلم بويه (Anselm Buis) رئيس أساقفة ميلان، وكان تعدادها قرابة مائتي ألف مقاتل، وأخبرنا المؤرخ الأرمني متى الرهاوي أن الإمبراطور البيزنطي أحاط سلاجقة الروم علماً بتحركات هذه الحملة، فسارع قلج أرسلان مستفيداً من تلك المعلومات وسار بجيشه للقاء الصليبيين ودارت معركة شرسة قرب نيقية، وشرع السلاجقة يحصدونهم حتى أبيد معظم الجيش، وقدر المؤرخ الأرمني عدد القتلى بزهاء مائة ألف مقاتل، ولم يفلت منهم سوى قلة قليلة لجأت إلى أنطاكية[81].

ويتكرر المشهد ثانية مع الحملة الثانية التي وصلت إلى القسطنطينية في أوائل يونيو (حزيران) 495هـ/ 1101م، وكانت بقيادة وليم أوف بواتو (William of Poitiers) دوق أكوتين، وتجمع المصادر اللاتينية والأرمنية أن الإمبراطور البيزنطي قدم معلومات غاية في الدقة عن هذه الحملة، تضمنت أعداد المشاركين فيها، وكان وقوف قلج أرسلان على هذه المعلومات وراء مكاتبته للأمراء المسلمين لمساعدته في التصدي لهم، ودارت معارك طاحنة بين الجانبين انتهت بتمزيق الحملة الصليبية وفرار قائدها مع ثلة قليلة من فرسانه إلى أنطاكية ومنها إلى بيت المقدس، ثم عاد إلى بلاده يجر أذيال الخيبة والفشل الذريع وقدرت الخسائر البشرية في هذه المعركة بثلاثمائة ألف فارس[82].

كان لهذه الانتصارات نتائج ملموسة على سلطنة سلاجقة الروم؛ فقد محت الأثر المدوي للانتصارات الصليبية في نيقية وضورليوم، فضلاً عن ارتفاع الروح المعنوية للسلاجقة، لكن الأهم تحسن أوضاع السلطنة والسير نحو الاستقرار. ويندرج ضمن نتائج تلك الانتصارات الخسائر البشرية الكبيرة التي لحقت بالصليبيين، وترتب عليها تفاقم مشكلة نقص العنصر البشري في الإمارات الصليبية؛ إذ لم يصل من تلك الحشود الضخمة إلى الإمارات الصليبية سوى أعداد قليلة لم تكن كافية للنهوض بالمشاريع العدوانية التوسعية على حساب المسلمين. وبذلك وقفت السلطنة السلجوقية سداً منيعاً في وجه الجموع الصليبية، وحمت المسلمين في الشام من وصول تلك الإمدادات التي كانت الدويلات الصليبية في أمس الحاجة إليها.

بعد هذه الانتصارات تفرغ قلج أرسلان للاتجاه إلى المشرق، وانتهز وفاة السلطان السلجوقي بركياروق ثاني ربيع الآخر 498هـ/ 1104م[83]، وأخذ بتوسيع حدوده شرقاً، فاستولى على مدينة ميافارقين في27 جمادى الأولى 498هـ/ 14 كانون الثاني 1105م، وأتبع ذلك بالسيطرة على مدينة آمد، وأخضع أمراء ديار بكر، واستولى على مدينة أبلستين[84]، وتوج جهوده بالسيطرة على مدينة ملطية 499هـ/ 1105م[85]، ومنها خرج في أول حملة ضد كونتية الرها الصليبية 499هـ/ 1105م، واجتاحت قواته أراضي الكونتية التي عجزت عن مقاومته، إلا أن استنجاد أهالي حران بقلج أرسلان ودعوته لتسلم المدينة، جعلته يرفع الحصار عن الرها، ويسرع إلى حران لتسلمها، واستبشر الناس بوصوله إلى الجهاد وأقام أياماً ومرض مرضاً اضطره للعودة إلى ملطية، وأقام أصحابه بحران[86]، وأثار هذا النجاح رغبته في اجتياح الموصل فملكها في رجب 500هـ/ 1107م[87].

وكانت نذر الحرب البيزنطية النورماندية قد تجمعت بعد عودة بوهيموند (Bohemond) أمير أنطاكية الصليبية في أواخر سنة 1104م/ 498هـ، إلى جنوب إيطاليا، وأخذ يعد العدة لمهاجمة بيزنطة، سار بوهميند بقواته صوب مدينة دورازو(Durazzo) الواقعة على الساحل الشرقي للإدرياتيك، وألقى عليها الحصار في أكتوبر (تشرين الأول) 1107م[88]، فتحرك الإمبراطور بقواته للدفاع عن المدينة، ولما أيقن بقصور قدراته العسكرية في محاربة بوهيموند، استنجد بسلطان السلاجقة قلج أرسلان، فأمده بقوة عسكرية كبيرة لمساعدته في هذه الحرب[89]، أورد هذه الحقيقة المؤرخ ابن القلانسي[90]، وابن الأثير الآخذ عنه[91]، والمؤرخ الصليبي وليم الصوري[92]، وفي سبتمبر (أيلول) 1108م، حلت الهزيمة بالأمير النورماندي بوهيموند وأجبر على توقيع معاهدة ديفول (Devol)[93]، وانسحب عائداً إلى إمارته في ذل وانكسار وظل مقيماً فيها حتى وفاته عام1111م[94]. أما القوات السلجوقية التي كان لها دورٌ فاعلٌ في تحقيق الانتصار فقد عادت إلى موطنها، وعلى حد تعبير المؤرخ ابن القلانسي فإن أصحاب قلج الذين سيرهم لإنجاد صاحب القسطنطينية؛ فنصروا على الفرنج ونهبوهم ووصلوا إلى أماكنهم بعد أن خلع عليهم ملك الروم وأحسن إليهم[95].

وكان لهذه المساعدة التي قدمها للإمبراطور البيزنطي أثرها في إضعاف قدرته العسكرية حين احتدم الصراع بينه وبين الأمير جاولي سقاوة[96] على الموصل؛ لذلك

أرسل يستدعي تلك القوات لتعزيز موقفه مع جاولي، وحين تحركت لمساعدته كان الوقت قد فات، وقد أكد المؤرخ ابن الأثير ذلك بقوله: "عاد عسكر قلج إلى بلادهم عازمين على المسير إلى صاحبهم بديار الجزيرة فأتاهم الخبر بقتله "[97]؛ فقد هزم ومات غريقاً بنهر الخابور سنة 500هـ/ 1107م[98].

بعد مقتله مرت السلطنة بفترة من الضعف والتفكك لوقوع ابنه ملكشاه في أسر جاولي الذي أرسله بدوره إلى السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه (498-512هـ/ 1104-1118م)[99]، فأطلق سراحه بسبب صغر سنه[100]، وتمكن ملكشاه الأول بن قلج أرسلان (504-510هـ/ 1110-1116م)[101]، من استعادة عرش السلطنة، وأعاد تنظيم شؤون دولته؛ بحيث باتت على درجة من القوة مكنته من التوغل في الأراضي البيزنطية ومهاجمة فيلادلفيا والمناطق المطلة على البحر[102]، لكن ما لبث أن حلت به الهزيمة؛ مما اضطره لعقد الصلح مع بيزنطة[103]، ثم أعاد الكرة ثانية وحاصر مدينة نيقية 506هـ/ 1112م لكنه فشل في استعادتها[104]، وبينما هو مشغول في حربه مع بيزنطة تمرد عليه أخوه مسعود، فاضطر لعقد الهدنة مع بيزنطة قبل أن يعود إلى قونية للقضاء على تمرد شقيقه، وقد رفض ملكشاه مقترحات الإمبراطور البيزنطي بالعودة إلى عاصمته بمرافقة قوة عسكرية بيزنطية لمساعدته في القضاء على التمرد، وعاد بصحبة قواته واحتدم الصراع على العرش بينه وبين أخيه وانتهى بمقتله وتولية ركن الدين مسعود الأول بن قلج أرسلان الحكم مكانه (510-551هـ/ 1116-1156م)[105].

وقف السلطان الجديد إلى جانب بيزنطة في حربها مع المملكة الهنغارية، وأمد السلطان مسعود الإمبراطور البيزنطي يوحنا كومنين الثاني(John II Comnenus) (512-538هـ/ 1118-1143م) بقوة مختارة من جيشه، وتحقق النصر للإمبراطور وهزم الملك الهنغاري هزيمة ساحقة، وأثنى المؤرخ البيزنطي كيناموس على الفرقة السلجوقية والدور الذي اضطلعت به في هزيمة الملك الهنغاري[106].

استغل الأمير الدانشمندي أحمد غازي (499-529هـ/ 1105-1135م) انشغال بيزنطة في مشكلات البلقان، وأخذ بالتوسع في المناطق الواقعة على سواحل البحر الأسود،

وبعد وفاته سنة 529هـ/ 1135م خلفه على العرش ابنه محمد، وقد وقف السلطان مسعود إلى جانب بيزنطة في نزاعها مع إمارة الدانشمند؛ لكونه لم يكن على وفاق مع الأمير الدانشمندي الجديد، وقد استغلت بيزنطة حالة عدم الوفاق بينهما، وأرسلت سفارة إلى قونية لترتيب قواعد الصلح، والتمست السفارة من السلطان مسعود الإمدادات العسكرية لإبعاد الأمير الدانشمندي من المواقع التي سيطر عليها، ولم تجد السفارة صعوبة في تحقيق مطالبها وتقرر الصلح، وأرسلت القوات السلجوقية إلى القسطنطينية لتنفيذ ما تم الاتفاق عليه، في هذه الأثناء سارع الأمير الدانشمندي لتفكيك التحالف الذي تشكل ضده، ونجح بتصفية خلافاته مع السلطان مسعود واستقرت بينهم قواعد الصلح. واتفقوا أيضاً على الوقوف في وجه الإمبراطور، وبادر السلطان مسعود فأرسل إلى قواته يأمرها بالانسحاب ليلاً من جانب القوات البيزنطية، وأثار هذا التصرف غضب الإمبراطور غضباً شديداً، لكن لم يكن بمقدوره أن يفعل شيئاً[107].

لم يغفر الإمبراطور الجديد مانويل الأول كومنين (Manuel I Comnenus) (538–576هـ/ 1143–1180م) للسلطان مسعود نقضه للمعاهدة مع والده، وأعد قواته 542هـ/ 1147م، للزحف على العاصمة قونية وتدميرها، ولما علم السلطان مسعود باستعدادات الإمبراطور مانويل، أرسل سفارة رفيعة المستوى تلتمس تجديد اتفاقية الصلح، وقوبل الالتماس بالقبول. وعقدت اتفاقية الصلح، وعاد الإمبراطور إلى عاصمته[108].

اتضحت أهمية هذه المعاهدة حين زحفت جموع الحملة الصليبية الثانية 542هـ/ 1147م على بلاد الشام؛ إذ إن بيزنطة لم تقدم دعماً حقيقياً لقوات الحملة الصليبية الثانية بسبب هذه الاتفاقية، وحين عبرت الجيوش الألمانية آسيا الصغرى، تلتها الجيوش الفرنسية، قدمت بيزنطة لسلاجقة الروم معلومات استخباراتية على درجة كبيرة من الأهمية، تضمنت تفاصيل تحركات الحملة وأعدادها، وأفاد مسعود من ذلك في تجهيز قواته للمواجهة، ومراسلة الإمارات الإسلامية طالباً مساعدتها في التصدي للقوات الصليبية. وأوقعت القوات الإسلامية خسائر فادحة في الجانب الصليبي حتى إن المؤرخ الإنجليزي ويندوفر يذكر أنه من السبعين ألف محارب ألماني لا يكاد عُشر هذا العدد وصل إلى بلاد الشام[109]، وفي هذا الصدد أكد المؤرخ الرهاوي المجهول أن ما تحقق للسلاجقة

إنما تم بفضل المساعدة البيزنطية، يقول: "أوعزوا إلى الأتراك القاطنين في قبادوقيا بمهاجمتهم فجاء الملك مسعود مع جنود كثيرين ووجدوهم قد خارت قواهم من الجوع والعطش، فوثبوا عليهم وأبادوهم بحد السيف"[110]، وكان من النتائج الآنية لانتصار السلاجقة إبادة أعداد كبيرة من قوات الحملة الصليبية الثانية؛ مما حرم الإمارات الصليبية في الشام من إمدادات بشرية كبيرة كانوا في أمس الحاجة إليها لمواجهة القوة الإسلامية بقيادة نور الدين زنكي؛ الأمر الذي مكنه من المضي قدماً في بناء الجبهة الإسلامية المتحدة ومقاومة الصليبيين.

بعد وفاة السلطان مسعود 551هـ/ 1156م[111]، خلفه في الحكم ابنه قلج أرسلان الثاني (551–584هـ/ 1156–1188م)، الذي برهن خلال حكمه أنه صاحب حنكة سياسية[112]؛ فقد سار على نهج والده في استكمال الوحدة السياسية للأناضول بالقضاء على الإمارات التركية المجاورة، والاستمرار في محاربة البيزنطيين وتقليص وجودهم في آسيا الصغرى. لكن الأمور لم تستقم له بسهولة، ففي بداية عهده دبرت مؤامرة لخلعه عن العرش وتولية أخيه شاهنشاه بدلاً منه، واشترك في حبك خيوطها يعقوب بن أرسلان بن دانشمند أمير سيواس، فضلاً عن عدد من أمراء السلطنة[113]، في الوقت الذي كانت فيه بيزنطة تتحين الفرصة للهجوم على المقاطعات الغربية لسلطنة سلاجقة الروم، فاضطر قلج أرسلان لزيارة القسطنطينية التي شجعت دبلوماسيتها إذكاء نار الخلافات بين أمراء الأتراك سنة 558هـ/ 1162م، وبحسب رواية المؤرخ البيزنطي كيناموس فإنه أحيط بمظاهر الفخامة والأبهة بعد أن قدم ولاءه للإمبراطور البيزنطي[114]، ويتراءى لي أن الظروف الداخلية التي مرت بها السلطنة أجبرت قلج على هذه الزيارة ومداراة الإمبراطور ريثما تستقر الأمور داخل السلطنة، وفي هذا السياق أكد ابن العبري أن الباعث على زيارة قلج أرسلان للقسطنطينية المؤامرة التي استهدفت الإطاحة به عن عرش السلطنة[115]، وهو ما يفسر طول المدة التي قضاها في القسطنطينية؛ حيث مكث زهاء ثمانين يوماً[116]، نجح خلالها في إبرام معاهدة تحالف مع الإمبراطور البيزنطي تضمنت إعادة سائر المدن البيزنطية التي سيطر عليها سلاجقة الروم منذ أمد قريب، وتقديم فرقة عسكرية من قواته للقتال إلى جانب الإمبراطور

متى اقتضت الحاجة، ومنع القبائل التركمانية الخاضعة لسلطانه من إلحاق الأذى بالإمبراطورية البيزنطية[117]. وبهذه المعاهدة نجح قلج أرسلان بتحييد الإمبراطور البيزنطي، ليتفرغ لمحاربة منافسيه داخل الأناضول.

وقبل متابعة الحديث عن جهود السلطان قلج أرسلان في هذا المجال نتوقف عند حملة الإمبراطور مانويل كومنين على حلب سنة 554هـ/ 1159م، ويعنينا في هذا المقام سفارة الإمبراطور مانويل إلى نور الدين، وكان هدفها إطلاق سراح ستة آلاف من الأسرى المسيحيين الذين كانوا في سجون نور الدين زنكي، وتحدثت المصادر الإسلامية واللاتينية عن هذا الجانب الذي تضمنته المفاوضات بينهما [118]. وقد ذهب المؤرخ البيزنطي كيناموس للحديث عن مفاوضات بهدف تحالف الطرفين ضد سلاجقة الروم في الأناضول، وأكد أن نور الدين أطلق سراح ستة آلاف من الناس العاديين الذين كان قد أسرهم من بين صفوف الجيشين الألماني والفرنسي في أثناء زحفهما على آسيا، ولقد فعل نور الدين هذا كله، ووافق بالإضافة إلى ذلك على مساعدة الإمبراطور في حروبه في آسيا، وتقبله مانويل حليفاً على قاعدة هذه الشروط، ثم تخلى عن أغراضه في حربه[119]، وبعد انعقاد الهدنة عاد مانويل إلى القسطنطينية في العُشر الأوسط من جمادى الأولى 554هـ/ 1159م[120]، وبالتمعن في رواية كيناموس وتمحيصها يتبين لنا صعوبة الأخذ بهذه الرواية، وسياق الأحداث يثبت غير ذلك.

- إذ لم يرد في المصادر المعاصرة الإسلامية واللاتينية والسريانية والأرمنية أية نصوص أو إشارات لاتفاقية بين نور الدين ومانويل بهذا المعنى.
- على الرغم من خطورة هذا التحالف الذي ضم الإمبراطور، وملك بيت المقدس بلدوين الثالث، وأمير أنطاكية رينو دي شاتيون، وتورس الأرمني، فإن نورالدين لم يضعف عندما علم بخروجهم، فقد جمع قواته من سائر أرجاء دولته وخرج لمحاربتهم[121]. وكان على درجة من القوة العسكرية تتيح له مواجهة هذا التحالف، وهذه الحقيقة أشار إليها المؤرخ ميخائيل السرياني بقوله: "نظرا إلى قوة وكثرة عساكره"[122].

- انفرد المؤرخ الرهاوي المجهول بذكر السبب الحقيقي الذي كان وراء تفكك هذا التحالف بقوله: "بلغ ملك الروم خبر من العاصمة عن تمرد قام به أحد العظماء اسمه أندرونيقس ابن عم مانويل كومنين[123]، ولما سمع الملك بذلك، عقد صلحاً مع نور الدين فأطلق هذا الأسرى الذين كانوا في حلب، وعاد ملك الروم إلى العاصمة دون أن ينجز شيئاً[124].
- تظهر رواية المؤرخ المجهول ضعف موقف الإمبراطور وأنه لم يكن في وضع يسمح له بفرض شروطه على نور الدين، ويبدو أن نور الدين بادر بإطلاق سراح الأسرى رغبة منه بتعجيل رحيله وتفكيك التحالف الذي تزعمه.
- تحالف نور الدين بالصورة التي ذكرها كيناموس لا يتفق وسياسة نور الدين المعلنة في تعامله مع الدول والإمارات الإسلامية؛ إذ كان لا يقصد ولاية إلا ضرورة، وإذا كان نور الدين يتطلع لبسط سيطرته على مناطق من إقليم الجزيرة وشمال الشام كانت تابعة لسلطنة سلاجقة الروم فإن ذلك لا يبرر تحالفه مع قوة معادية لتحقيق تطلعاته.

عموماً بعد عقد الهدنة مع بيزنطة عاد قلج أرسلان إلى بلاده فأرسل إليه الأمير يعقوب أرسلان وقد بلغه خبر التحالف يعرض عليه الصلح، فقبل السلطان ذلك واستقرت قواعد الصلح بينهما[125].

وفي سنة 560هـ/ 1164م توفي يعقوب أرسلان أمير سيواس[126]، فوجد قلج أرسلان في ذلك الفرصة التي يتمناها لتحقيق هدفه بالقضاء على إمارته، فأخذ بمهاجمتها واستولى على مدن جادوج وأبلستين وطورندة وضمها إلى دولته[127]، ثم تابع تحركاته سنة 565هـ/ 1169م وزحف على مدن قيصرية وقبدوقية وسمينادو واستولى عليها[128]، وبعد أن أحكم سيطرته عليها زحف سنة 568هـ/ 1172م إلى ملطية وسيواس وطرد منها صاحبها ذا النون محمد، فهرب ملتجئاً إلى نور الدين وطالباً العون منه[129]. فوجد نورالدين في ذلك الفرصة التي يتمناها لبسط سيطرته على إقليم الجزيرة الفراتية وشمال الشام، برهن على ذلك الإشارات التي وردت في المصادر، ومن ذلك قول المؤرخ وليم الصوري: "إن

الفرصة التي كان قد تمناها لفترة طويلة من الزمن قد أتت، لذلك استدعى قواته من جميع أقاليمه ووجه حملة إلى بلاد سلطان قونية التي كانت تتاخم أراضيه "[130]، كما ألمح ابن الأثير لمطامع نور الدين في بلاد قلج أرسلان سنة 568هـ/ 1172م بقوله: "عازماً على حربه وأخذ بلاده منه "[131]، وفي موضع آخر من تاريخه يشير إلى السفارة التي أرسلها نور الدين إلى الخليفة العباسي568هـ/ 1172م برئاسة قاضيه كمال الدين الشهرزوري وحملت رسالة مضمونها قيام الخلافة بتقليده ما بيده من بلاد ويذكر منها بلاد قلج أرسلان، وأن سفيره أجيب إلى ما التمسه[132]، وهي نصوص تدلل على نوايا نور الدين وتطلعه لبسط سيطرته على مناطق إقليم الجزيرة وشمال الشام التي كانت تابعة لسلطنة سلاجقة الروم.

أرسل نور الين إلى السلطان قلج أرسلان يطلب منه أن يرد ذا النون إلى إمارته، لكن السلطان تجاهل ذلك، فزحف نور الدين بقوات كبيرة، وتم تسوية الأزمة بموافقة السلطان على إعادة ذي النون إلى إمارته سنة568هـ/ 1172م[133]، وبعد وفاة نور الدين زنكي569هـ/ 1174م، سيطر قلج أرسلان على الإمارة الدانشمندية في سيواس وضمها لدولته[134]، ثم تطلع لضم إمارة ملطية وأخضعها لسيطرته[135]، وبذلك تمكن من تحقيق هدفه بالقضاء على الإمارات التركية المجاورة وتوحيد الأناضول تحت سلطته، وبذلك أصبح الحاكم الأقوى في الأناضول.

إثر هذا النجاح الذي حققه قلج أرسلان ولى وجهه صوب بيزنطة، التي وقف إلى جانبها حين نشب الصراع بينها وبين هنغارية سنة 561هـ/ 1165م، والتزاماً منه بمعاهدة التحالف بعث السلطان قلج أرسلان الثاني قوة عسكرية قاتلت إلى جانب الإمبراطور، وحاقت الهزيمة بالملك الهنغاري[136].

وحين طالبه الإمبراطور برد المدن التي تعهد بردها أخذ يماطله وضرب بعرض الحائط كل ما تم الاتفاق عليه مع الإمبراطور[137]. أثارت هذه التصرفات غضب الإمبراطور فسير حملة من قواته بقيادة ابن عمه أندرونيكس(Andronicus)، لكن الهزيمة حلت بهذه الحملة؛ مما أثار عداوة حادة بين الجانبين[138].

شكلت هذه الهزيمة تحدياً كبيراً لهيبة الإمبراطورية البيزنطية، فأخذ الإمبراطور بتنظيم

قواته لإخراج السلاجقة من الأناضول، ولما علم السلطان قلج أرسلان الثاني باستعدادات مانويل الكبيرة وتصميمه على اجتياح بلاده، أرسل مبعوثه إلى القسطنطينية ملتمساً تجديد اتفاقية الصلح، لكن الطلب قوبل بالرفض. تحرك السلطان قلج على رأس قواته والتقى القوات البيزنطية عند ميريوكيفالون في شعب شديد الانحدار شمالي بحيرة أجريدير في ربيع الأول سنة 572هـ/ سبتمبر (أيلول) 1176م، وانجلت هذه المعركة عن هزيمة مروعة حلت بالإمبراطور، وبهذا النصر وضع قلج أرسلان فصل الختام لأحلام بيزنطة التي دامت قرناً من الزمان بطرد سلاجقة الروم وإخراجهم من الأناضول باعتبارها جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية[139]، وكان من انعكاسات هذا النصر على الصراع الإسلامي الصليبي أن تأمن الجناح الشمالي للجبهة الإسلامية المتحدة بقيادة صلاح الدين وباتت بيزنطة عاجزة عن تقديم أية مساعدات حقيقية للصليبيين في مواجهة صلاح الدين.

خاتمة الدراسة

في ضوء ما سبق توصلت الدراسة إلى جملة من النتائج، نوجزها على النحو الآتي :

- شهد النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بروز ظاهرة التعاون في المجال العسكري بين سلاجقة الروم وبيزنطة.
- اتضح من خلال الدراسة أن التعاون العسكري في عهد مؤسس سلطنة سلاجقة الروم كان دعامة من دعائم سياسته لتثبيت أركان دولته وكسب مواقع جديدة في آسيا الصغرى على حساب بيزنطة بما حقق لها الاستقرار.
- كان من النتائج المباشرة للتعاون العسكري بين سلاجقة الروم وبيزنطة ترسيخ أقدام السلاجقة في الأناضول، وأصبح الوجود السلجوقي في المنطقة أمراً واقعاً ولم تملك بيزنطة إلا الاعتراف بهذا الوجود بل والاتفاق فيما بينهما على ترسيم الحدود بين الجانبين.
- اتضح من خلال الدراسة أن التعاون العسكري كان ينظم بموجب معاهدات تحدد التزام كل طرف تجاه الطرف الآخر، وكانت المعاهدات المنظمة لهذا التعاون على نوعين: معاهدات يفرضها السلاجقة، ومن خلالها تقدم المساعدات العسكرية

مقابل امتيازات معينة تقدمها بيزنطة مثل التنازل عن المدن والأقاليم لصالح السلاجقة فضلاً عن الأموال والمنافع الأخرى، أما المعاهدات التي كانت تفرضها بيزنطة فكانت تنص على تقديم السلاجقة لقوات عسكرية تقاتل إلى جانب الإمبراطور بحسب ما تقتضي الحاجة.

- تبين من خلال الدراسة أن القوات السلجوقية التي كانت تشارك في القتال إلى جانب بيزنطة كانت تحصل على عوائد وأعطيات نقدية وعينية.
- سلطت الدراسة الضوء على حقب الضعف والتفكك السياسي التي مرت بها سلطنة سلاجقة الروم، وبينت الدراسة الجهود الكبيرة التي بذلتها بيزنطة لاسترجاع الأقاليم التي كانت في حوزة السلاجقة، وكان تقدم جيوش الحملة الصليبية الأولى في الأناضول فرصة ثمينة استغلتها بيزنطة لاستعادة جانب كبير من الأناضول التي فتحها سلاجقة الروم.
- تم تسليط الضوء من خلال الدراسة على التعاون العسكري بين سلاجقة الروم وبيزنطة خلال الحقبة الصليبية، وتنوع مجالاته ما بين إمدادات عسكرية مباشرة وتعاون وتنسيق استخباراتي وتبادل للمعلومات بينهما بما انعكس إيجاباً على جهود سلاجقة الروم في التصدي للصليبيين.
- تبين من خلال الدراسة أنه على الرغم من اشتداد الصراع بين سلطنة سلاجقة الروم والعديد من الإمارات الإسلامية فإن سلاجقة الروم لم يتحالفوا مع أية قوى صليبية ضد أي عدو لهم في الشام والجزيرة الفراتية، وظلت العلاقات السلجوقية الصليبية علاقات عدائية.
- مثلت معركة ميريوكيفالون 572هـ/ 1176م الفصل الأخير في محاولات بيزنطة طرد سلاجقة الروم وإخراجهم من الأناضول باعتبارها جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية.

الهوامش والمراجع

(1) هو السلطان أبو شجاع ألب أرسلان محمد. انظر ترجمته في. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد: **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، ج18، ط11، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1996، ص414-418.

(2) ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس الملطي: **تاريخ الزمان**، ترجمة: إسحق أرملة، بيروت: دار المشرق، 1986، ص 112.

(3) عقلة، عصام مصطفى: "**السفارات المتبادلة بين السلاجقة والبيزنطيين في عهد طغرلبك**"، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، الجامعة الأردنية: العدد2، 2008، ص 79.

(4) ابن العديم، كمال الدين أبي القاسم عمر: **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، تحقيق: د. سامي الدهان، ج2، دمشق: المعهد الفرنسي للدراسات العربية، 1954، ص 19 – 20.

(5) السرياني، مار ميخائيل: **تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير**، ترجمة: غريغوريوس شمعون، ج3، ط 1، حلب: دار ماردين، 1996، ص 138 – 139. وسليمان بن قتلمش مؤسس سلطنة سلاجقة الروم. انظر: أعلام النبلاء، ج18، ص449.

(6) تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ج 3، ص141.

(7) كومنينا، أَنّا: **أَلِكسَياد**، ترجمة: د. حسن حبشي، ط 1، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2004، ص254.

(8) تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ج 3، ص141. وكبدوكية Cappadoca، منطقة في آسيا الصغرى تمتد شرق السهل المركزي للأناضول من نهر قزل إرماق حتى الفرات. انظر: موستراس، س: **المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية**، ترجمة: عصام الشحادات، بيروت: دار ابن حزم، 2002، ص16

(9) حول تحركات القبائل التركمانية واستيطانها في آسيا الصغرى، انظر: تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ج3، ص131 ،141. رنسيمان، ستيفن: **الحضارة البيزنطية**، ترجمة: عبد العزيز جاويد، القاهرة: 1961، ص 52. بينز، نورمان: **الإمبراطورية البيزنطية**، ترجمة: د. حسين مؤنس، يوسف زايد، ط 1، القاهرة: 1957، ص179.

(10) العظيمي، محمد بن علي الحلبي: **تاريخ حلب**، تحقيق: إبراهيم زعرور، دمشق: د. ن، 1984، ص349. تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ج3، ص141. مجهول: **تاريخ الرهاوي المجهول**، ترجمة: البير أبونا، ج2، ط1، بغداد: مطبعة شفيق، 1986، ص66. تاريخ الزمان، ص118. توران، عثمان: **الأناضول في عهد السلاجقة والإمارات التركمانية**، ترجمة: د. علي الغامدي، ط1، مكة المكرمة: جامعة أم القرى، 1997، ص7. ومدينة نيقية(إزنيق الحالية) مدينة كبيرة من مدن إقليم بيثينيا، وهي قائمة على الساحل الشرقي لبحيرة نيقية، وصفها المؤرخ الإنجليزي ويندوفر وذكر أنها تزخر بجميع أنواع الثروات انظر: ويندوفر، روجر: **ورود التاريخ**، ترجمة: د. سهيل زكار،

ج39، دمشق: الموسوعة الشامية للحروب الصليبية، 2000، ص32. المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ص54.

(11) باركر، إرنست: **الحروب الصليبية**، ترجمة: د. الباز العريني، بيروت: دار النهضة العربية، 1967، ص 19. غروسيه، رينيه: **الحروب الصليبية صراع الشرق والغرب**، ترجمة: أحمد أيبش، دمشق: دار قتيبة، 2002، ص28 – 29. ماير، هانز: **تاريخ الحروب الصليبية**، ترجمة: عماد غانم، طرابلس الغرب: مجمع الفاتح للجامعات، 1990، ص18.

(12) تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير ،ج 3، ص142. تاريخ الرهاوي المجهول، ج2، ص67. تاريخ الزمان، ص118.

(13) أَلِكسَياد، ص 36. وانظر أيضاً: الحروب الصليبية صراع الشرق والغرب، ص28.

(14) أَلِكسَياد، ص 36.

(15) شينيه، كلود: **تاريخ بيزنطة**، ترجمة: جورج زيناتي، بيروت: دار الكتاب الجديد، 2008، ص101. رنسيمان، ستيفن: **تاريخ الحروب الصليبية**، ترجمة: د. الباز العريني، ج 1، ط 5، بيروت: دار الثقافة، 1997، ص97-104.

(16) أَلِكسَياد، ص 36.

(17) تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص104.

(18) Brehier، L : **Vie et Mort de Byzance** ، Paris:1947,P.284 .

(19) الفارقي، أحمد بن يوسف بن الأزرق: **تاريخ الفارقي**، تحقيق: بدوي عبد اللطيف، القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1959، ص 272– 274 .

(20) أَلِكسَياد، ص 38.

(21) أَلِكسَياد، ص 38 – 39.

(22) تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ج 3، ص135.

(23) تاريخ الزمان، ص 117.

(24) أَلِكسَياد، ص 67. تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ج 3، ص144 . تاريخ الزمان، ص 117. نيكول، دونالد: **معجم التراجم البيزنطية**، ترجمة: د. حسن حبشي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2003، ص 157، 164–165. الإمبراطورية البيزنطية، ص 68. ونيقوميديا Nicomedia. مدينة في الأناضول في عمق خليج يحمل الاسم نفسه على بحر مرمرة، وكانت فيما مضى عاصمة منطقة بيثينيا، وتشتهر بتجارة الخشب والملح. انظر: المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ص51.

(25) بامفيليا Pamphylia، وباليونانية Pamphulia. منطقة جغرافية ساحلية قديمة جنوب الأناضول، تحدها قليقية شرقاً وليقية غرباً وبسيدية شمالاً. المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ص 220.

(26) أَلِكسَياد، ص 44.

(27) تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ج 3، ص144. أشار إليه بالقول : أساء الإدارة وتبلبلت شؤون

المملكة . في حين يذكر ابن العبري أنه أساء التصرف في الرعية مدة سنتين حتى كاد يفضي بها إلى الدمار . تاريخ الزمان، ص 117 .

(28) أَلِكسَياد، ص 43 – 53 . أوردت كومنينا في تاريخها تفاصيل مهمة عن ثورة القائد برينيوس والقضاء عليه . انظر أيضاً: معجم التراجم البيزنطية، ص 165 .

(29) أَلِكسَياد، ص 112 – 124، 131، 140 – 141 . معجم التراجم البيزنطية، ص 165 .
Ostrogorsky: A History of the Byzantine State and Society, Oxford: 1956, P.P. 308 - 309 .

(30) تاريخ بيزنطة، ص 98 .

(31) أَلِكسَياد، ص 97 – 126 . تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ج3، ص144 – 145 . تاريخ الزمان، ص117 . الإمبراطورية البيزنطية، ص 68 .

(32) أَلِكسَياد، ص –155 160، 268–271، 279–294 .

(33) أَلِكسَياد، ص 162 .

(34) أَلِكسَياد، ص –161 162 .

(35) أَلِكسَياد، ص 162 .

(36) أَلِكسَياد، ص 175 .

(37) أَلِكسَياد، ص 175 .

(38) أَلِكسَياد، ص 180 .

(39) أَلِكسَياد، ص 213 .

(40) أَلِكسَياد، ص 242–251 .

(41) أَلِكسَياد، ص 162، 38 .

(42) انظر ترجمته في: **سير أعلام النبلاء**، ج19، ص83–85 .

(43) حول هذه المعركة انظر: أَلِكسَياد، ص 254 . تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ج 3، ص153 . تاريخ الزمان، ص 119 .

(44) أَلِكسَياد، ص 254 . الملاحظ أن سليمان بن قتلمش حين فتح مدينة أنطاكية 478 هـ/ 1085 م ترك نائباً عنه في نيقية ولده الأكبر قلج أرسلان . انظر: تاريخ الزمان، ص 118، وفي هذه المرة فإن وقوع أولاده في أسر ملكشاه يشير إلى اصطحابه لهم في هذه الحملة .

(45) أَلِكسَياد، ص 256 .

(46) أَلِكسَياد، ص 256 . الأناضول في عهد السلاجقة، ص11 .

(47) هو جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه ثالث سلاطين السلاجقة العظام . عنه انظر: ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، 1977، ص283–289 .

(48) برسق: أحد كبار الأمراء والقادة من أتباع السلطان ملكشاه. انظر: يوسف، إرشيد، **سلاجقة الشام والجزيرة**، عمان: 1988، ص84.

(49) ألِكسَياد، ص 261.

(50) ألِكسَياد، ص 262.

(51) بوزان: أحد كبار القادة الأتراك من أتباع السلطان ملكشاه. انظر: سلاجقة الشام، ص84.

(52) ألِكسَياد، ص -262 263.

(53) ألِكسَياد، ص 264.

(54) ألِكسَياد، ص -263 266 .

(55) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم الشيباني، **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل**، تحقيق: عبد القادر طليمات، القاهرة: دار الكتب الحديثة، 1963، ص11.

(56) ألِكسَياد، ص 265 - 266 .

(57) وهو خامس السلاطين السلاجقة العظام. عنه انظر: أعلام النبلاء، ج19، ص195-196 .

(58) عقلة، عصام مصطفى: "**الناوكية في بلاد الشام دراسة في التسمية والأصل والعلاقة بالغز العراقية وبالدولة السلجوقية**"، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، الجامعة الأردنية: العدد2، 2012. وهي دراسة على جانب كبير من الأهمية عن الناوكية. عن قلج أرسلان انظر: زامباور: **معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي**، ترجمة: زكي محمد، وحسن محمود، بيروت: دار الرائد العربي، 1980، ص215. وانظر أيضاً مادة قلج أرسلان الأول: Kazhdan.A, & others(eds), The Oxford Dictionary of Byzantium,vol2, Oxford1991,p1128.

(59) سبط ابن الجوزي، يوسف بن قز أوغلي: **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان حوادث** (497-517 هـ)، تحقيق: مسفر الغامدي، ج2، ط1، مكة المكرمة: جامعة أم القرى، 1987، ص 443-444.

(60) ألِكسَياد، ص 266 .

(61) أهملت المؤرخة البيزنطية تحديد السنة التي استعاد فيها قلج أرسلان العرش، أما المؤرخ ابن الجوزي فقد ساقه في حوادث سنة 498هـ/ 1104م، أما في الدراسات الحديثة فقد جعله المؤرخ التركي عثمان توران سنة 485هـ/ 1092م. في حين جعله كاهن سنة 487هـ/ 1094م. انظر: مرآة الزمان، ج 2، ص 443. الأناضول في عهد السلاجقة، ص 11.

Cahen، C : **La Syrie du Nord al 'Epoque des Croisades**، Paris: 1940، P. 182.

(62) أجيل، ريموند: **تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس**، ترجمة: حسين عطية، ط1، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1989، ص77.

(63) ورود التاريخ، ج 39، ص33.

(64) ألِكسَياد، ص 266 .

(65) ألِكسَياد، ص 266 .

(66) الأناضول في عهد السلاجقة، ص 11 .

(67) أِلكِسَياد، ص 353 .

(68) تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ج 3، ص160. تاريخ الزمان، ص122.

(69) تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ج 3، ص160.

(70) آخن، ألبرت: **تاريخ الحملة الصليبية الأولى**، ترجمة: د. سهيل زكار، ج51، ط1، دمشق: الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، 2007، ص38.

(71) تاريخ حلب، ص 358 .

(72) تاريخ الرهاوي المجهول، 2 / 74.

(73) أِلكِسَياد، ص 410 – 415 .

(74) تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ج 3، ص161. تاريخ الزمان، ص122.

(75) Kinnamos, J : **Deeds of Johan and Manuel Comnenus,** Tr: Brand. M, Newyork: 1976, P. 47

(76) أِلكِسَياد، ص 416 – 422. تاريخ حلب، ص 359. **مجهول : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس**، ترجمة: د. حسن حبشي، القاهرة: دار الفكر العربي، 1958، ص 37.

(77) أِلكِسَياد، ص 419. أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص 37.

(78) الصوري، وليم: **تاريخ الحروب الصليبية : الأعمال المنجزة فيما وراء البحار**، ترجمة: د. سهيل زكار، ج1، ط1، دمشق: دار الفكر للطباعة، 1990، ص 244.

(79) أِلكِسَياد، ص –432 434 .

(80) تاريخ الحروب الصليبية، م1، ق1، ص 30. وانظر أيضاً: Barthold, Histoire des Turcs dAsie Centrale, Paris1945p. p80–88

(81) تاريخ متى الرهاوي، ص 108.

(82) تاريخ متى الرهاوي، ص 111 – 115. الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ج1، ص490 – 493. فيتالي، أورديك: **التاريخ الكنسي**، ترجمة: د. سهيل زكار، دمشق: دار التكوين، 2008، ص 211 – 219. أما في المصادر الإسلامية فانظر: تاريخ حلب، ص361.

(83) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم الشيباني، **الكامل في التاريخ**، صححه: محمد الدقاق، ج9، ط2، بيروت: دار الكتب العلمية، 1995، ص 77.

(84) تاريخ الفارقي، ص 272–273.

(85) تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير ،ج 3، ص161. تاريخ الزمان، ص128.

(86) ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد: **تاريخ ابن القلانسي المعروف بذيل تاريخ دمشق**، تحقيق: أمدروز، القاهرة: مكتبة المتنبي، د. ت، ص 150. الكامل في التاريخ، ج 9، ص97. الرهاوي، متى: **تاريخ متَّى الرَّهاوي**، ترجمة: محمود الرويضي، عبد الرحيم الزيتاوي، عمان: 2008، ص153.

(87) تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير ،ج 3، ص161 . تاريخ الزمان، ص129 .

(88) أَلِكسَياد، ص 492، 502–515 .

(89) أَلِكسَياد، ص 515 – 518 .

(90) ذيل تاريخ دمشق، ص –156 158 .

(91) الكامل في التاريخ، ج 9، ص104 .

(92) الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ج 1، ص526 – 527 . في حين لم ينوه بهذا التعاون الشارتري، فوشيه: **تاريخ الحملة إلى القدس** (1095 – 1127م)، ترجمة: زياد العسلي، عمان: دار الشروق، 1990، ص 142 – 143 . توديبود، بطرس: **تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس**، ترجمة: حسين عطية، الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية، 1998، ص –131 134 . تاريخ الحملة الصليبية الأولى ص 270 .

(93) لمزيد من التفاصيل حول هذه المعاهدة انظر: أَلِكسَياد، ص 523 – 540 . التي انفردت بإيراد النص الكامل للمعاهدة . تاريخ الحملة إلى القدس ،ص 143: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ص 270–271 . التاريخ الكنسي، ص 306–308 . الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ج 1، ص527 . أما في الجانب الإسلامي فأشار إليها ذيل تاريخ دمشق، ص 164 .

(94) التاريخ الكنسي، ص 307 – 308 .

(95) ذيل تاريخ دمشق، ص 158 .

(96) جاولي سقاوة: ولي إمارة الموصل من قبل السلطان محمد بن ملكشاه سنة500هـ . انظر: سلاجقة الشام، ص117 .

(97) الكامل في التاريخ، ج 9، ص104 .

(98) الكامل في التاريخ، ج 9، ص104 . تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير ،ج 3، ص161 . تاريخ الزمان، ص129 – 130 .

(99) غياث الدين أبو شجاع . عنه انظر: أعلام النبلاء، ج19، ص506–507 .

(100) تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ج 3، ص164 . تاريخ الزمان، ص 130 - 132 .

(101) عنه انظر: معجم الأنساب، ص215 .

(102) أَلِكسَياد، ص 558 .

(103) أَلِكسَياد، ص 561 – 562 .

(104) أَلِكسَياد، ص 563، 568 – 574، 593 – 596 .

(105) أَلِكسَياد، ص 612–614 . تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ج 3، ص164 . تاريخ الزمان، ص 132، وفي روايته يتحدث ابن العبري عن وقوف أحمد غازي الدانشمند إلى جانب زوج ابنته مسعود ومساعدته في انتزاع العرش من ملكشاه وتعينه سلطاناً .

(106) Deeds of Johan and Manuel Comnenus, P.P. 17 – 19 .

(107) Deeds of Johan and Manuel Comnenus, P.P . 20 – 21 .

(108) Deeds of Johan and Manuel Comnenus, P.58 .

(109) ورود التاريخ، ج 39، ص165 . وانظر أيضاً: تاريخ الرهاوي المجهول، ج 2، ص142، 174 .

(110) تاريخ الرهاوي المجهول، ج 2، ص174 .

(111) الكامل في التاريخ، ج 9، ص407 .

(112) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد: **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: بشار معروف، محيي السرحان، ج21، ط11، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1996، ص212 .

(113) تاريخ الزمان، ص 175 . Deeds of Johan and Manuel Comnenus, P . 218

(114) Deeds of Johan and Manuel Comnenus, P. 158 .

(115) تاريخ الزمان، ص 175 .

(116) تاريخ الزمان، ص 175 .

(117) Deeds of Johan and Manuel Comnenus, P. 158 .

(118) ذيل تاريخ دمشق، ص 357 – 358 . أبو شامة المقدسي، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل: **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، تحقيق: إبراهيم الزيبق، ج1، ط1، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1997، ص385 . الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ج 2، ص865 .

(119) Deeds of Johan and Manuel Comnenus, P. 143 .

(120) ذيل تاريخ دمشق، ص 358 . الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج 1، ص386 . تاريخ الزمان، ص 173 – 174 .

(121) تاريخ الرهاوي المجهول، ج 2، ص185 . تاريخ الزمان، ص 173 – 173 .

(122) تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ج 3، ص311 .

(123) تاريخ الرهاوي المجهول، ج 2، ص185 . هو أندرونيكس الأول(1185–1183) (Andronikos I م) .

(124) تاريخ الرهاوي المجهول، ج 2، ص185 .

(125) تاريخ الزمان، ص 175 .

(126) تاريخ الزمان، ص 176 .

(127) تاريخ الزمان، ص 177 .

(128) تاريخ الزمان، ص 180 .

(129) تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ج 3، ص 307–308 . تاريخ الزمان، ص 180 .

(130) الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ج 2، ص866 – 867 .

(131) الكامل في التاريخ، ج 10، ص49 . التاريخ الباهر، ص160 .

(132) الكامل في التاريخ، ج 10، ص51 .

(133) التاريخ الباهر، ص160 . تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ج 3، ص311

(134) تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ج 3، ص321 . تاريخ الزمان، ص190 .

(135) تاريخ الرهاوي المجهول، ج 2، ص215–216. تاريخ الزمان، ص194.

(136) Deeds of Johan and Manuel Comnenus، P. P. 177 – 178.

(137) Deeds of Johan and Manuel Comnenus، P. 218.

(138) سمباط: **التاريخ المعزو إلى القائد سمباط الأرمني**، ترجمة: د. سهيل زكار، ج35، دمشق: الموسوعة الشامية للحروب الصليبية، 1999، ص 284.

(139) لم تتحدث المصادر العربية الإسلامية عن معركة ميريوكيفالون إطلاقاً، وإنما ترد تفاصيل هذه المعركة الحاسمة في المصادر الأجنبية عنها. انظر: تاريخ سمباط، 35/ 290 – 291.
Deeds of Johan and Manuel Comnenus, P. 224. الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ج2، ص987–988. تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ج 3، ص333–335. تاريخ الرهاوي المجهول، ج 2، ص212 – 216. تاريخ الزمان، ص 192 – 195. Cahen,C, Pre-Ottoman Turkey, London1968 p.p19-51

المراجع بالحروف اللاتينية

References in Roman Script

(1) Ibn al-Athīr, Abū al-Ḥasan ‘Alī Ibn abī al-Karam al-Shaybānī (1995), ***Al-Kāmil fī al-Tārīḫ,*** 2nd edition, vol.10, ed. Muhammad Ahmad Daqqaq, Beirut, Dar al0-Kutub al-‘Ilmiyyah,.

(2) Tudepud, Peter, (1998) ***Tārīḫ al-Riḥlah Ilā Bayt al-Maqdis,*** ed. Husayn Atiyyah. 1st edition, Alexandria, Dar al-Ma’rifah al-Jami’iyyah.

(3) Al-Siyānī, Michael. (1996) ***Tārīḫ Mar Miḫā’īl al-Kabīr,*** ed. Gregorius Simon. 1st edition, Aleppo, Dar Mardin.

(4) Antochious, Abū al-Faraj Gregorious al-Malṭī. (1986) ***Tārīḫ al-Zamān,*** ed. Ishaq Armalah, 1st edition, Beirut, Dar al-Mashriq.

(5) Al-‘Uẓaymī, Muḥammad Ibn ‘Alī al-Ḥalabī, (1984) ***Tārīḫ Ḥalab,*** ed. Ibrahim Za’rour, Damascus.

(6) Al-Shārtrī, Fūsheh.(1990) ***Tārīḫ al-Ḥamlah Ilā al-Quds,*** ed. Ziyad al-Asali, Amman, Dar al-Shuruq.

(7) Ibn al-Qalānisī, Abū Ya‘lā Ḥamzah Ibn Asad al-Tamīmī(n.d.) ***Tārīḫ Ibn al-Qalānisī al-Ma‘rūf bi Dhayl Tārīḫ Dimashq,*** ed. Amdroz. Cairo, Maktabat al-Mutanabbi.

(8) Comnena, Anna, (2004) ***Alexiad,*** ed. Hasan Habashi, 1st edition, Cairo, al-Majlis al-A’la lil Thaqafah.

(9) Majhūl, (1986) ***Tārīḫ al-Rahāwī al-Majhūl,*** ed. Alber Abona, 1st edition, Baghdad, Maktba'at Shafiq.

(10) Al-Ṣūrī, William. (1990) ***Tārīḫ al-Ḥurūb al-Ṣalībiyyah,*** ed. Suhayl Zakkar, Damascus, Dar al-Fikr,.

(11) Ranciman, Stephen(1997). ***Tārīḫ al-Ḥurūb al-Ṣalībiyyah,*** ed. Al-Sayyid al-Baz al-'Urayni. Beirut, Dar al-Thaqafa.

(12) Beinz, Norman, (1957) *al-Imbarāṭūriyyah al-Bīzanṭiyyah,* ed. Husayn Mu'niz and Yusuf Zayed, 2nd edition, Cairo.

(13) Mostras, S. (2002) ***al-Mu'jam al-Ghughrāfī lil Imbratūriyyah al-'Uthmāniyyah,*** ed. Isam al-Shahadat, Beirut, Dar Ibn Hazm.

(14) Nichole, Donald, (2003) ***Mu'jam al-Tarājim al-Bīzanṭiyyah, ed.*** Hasan Habashi, 1st edition, Cairo, al-Hay'ah al-Misriyyah al-'Ammah lil Kitab.